الفصل الحادى عشر

الازدواج

الازدواج أوالمزاوجة

هولُغَةً : مصدر زَاوَجَ بين الشَّيْئَيْنِ إذا قارَبَ بينَهُما .

وفى الاصطلاح : قال السكاكى ومَن تَبِعَه هوأن يزاوج المتكلم بين معنيين فى الشَّرْطِ والجَزَاءِ .

ويوجد فى الشعر ، ويكثر فى النثر .

من شواهده الشعرية قول البحترى:

إِذَا مَا نَهَى النَّاهِى فَلَجَّ بِهِ الهَوَى أَصَاخَتْ إِلَى الوَاشِى فَلَجَّ بِهَا الهَجْرُ(٥٩)

وقوله :

إِذَا احْتَرَبَتْ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرَتِ القُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

والازدواج مرتبط بالنثر ، فالسجع فى أول نشأته مرحلة متوسطة بين النثر المطلق والشعر المُقَفَّى ، وفى آخر تطوره شِعْرٌ مَنْثُورٌ ، أوهوشِعْرٌ لَهُ أَوْزَانٌ ولَيْسَتْ لَهُ قَافِيَةٌ مُلْتَزَمَةٌ (٦٠) .

والنثر ثلاثة أنواع ، مُرْسَلٌ ، ومَسْجُوعٌ ، ومُزْدَوَجٌ . والازدواج من صُوَرِ الإطناب يحرص فيه الكاتب أوالخطيب على قُيُودِ السجع وقد يضيف إليها الالتزام بحَرْفٍ أوبحركة أوبهما معا ، وقد يستفيد من حرية الفواصل باتفاق الفاصلتين من نفس المخرج أومن مخرج قريب .

والجاحظ هوالأديب الذى عرف قيمة الازدواج فاصطنعه فى أساليبه وأَرْجَعَ فضل الكُتَّابِ كالحَسَنِ بْنِ وَهْب ومُحَمَّد بنِ عبد الملك الزيات إلى البَصَرِ بالشِّعْرِ، فقد قال :" طَلَبْتُ عِلْمَ الشِّعْرِ عند صمعى فوجدتُهُ لا يَعْرِفُ إلا غَرِيبَهُ . فرجعتُ إلى الأَخْفَشِ فألفيتُهُ لا يُتْقِنُ إلا إعْرَابَهُ فلم أَظْفَرْ بما أَرَدْتُ إلا عند أدباء الكتاب" ، قال الدكتور ابراهيم سلامة معقبا على قول الجاحظ : " وقد عَمِلَتْ هذه الكلمة عَمَلَها السِّحْرِى فى نفوس الكتاب فاتخذوا الجاحظ إمامًا لهم فى الأسلوب المُقَسَّمِ الذى يَحْكُمُه الازدواج وتقف الفواصل توزعه توزيعا عادلا مستقيما .

يقول الصَّاحِبُ بنُ عَبَّادٍ بعد أن أورد هذه العبارة :(لِلَّهِ دَرُّ أبى عُثمان لقد غاصَ على سِرِّ الشِّعْرِ ، واستخرج أَدَقَّ مِنَ الشَّعْرِ) وكلام الجاحظ فيه الكثيرمن الوجاهة ... فإنَّ النَّثْرَ المَحْبُوكَ يمتازُبالدِّقَّةِ والتحديد وحُسْنِ السَّبْكِ ، فهويقارب الشعر من ناحيتين :

أولا : لاشتماله على الوزن فى آخر الجملة وفى وسطها .

ثانيا : لدقته وضغط معانيه ضغطا لا يكون إلا فى الشعر الذى يتسع فيه البيت الواحد لمعنى أولمعان لا تُؤَدَّى إلا فى جُمَلٍ كثيرة إذا نُثِرَتْ ، وتلك خاصة من خواص الشعر ترجمها بعض الأدباء الفرنسيين فى قوله : (تعلمت الشعر لأعرف كيف أكتب) .

والكُتَّابُ كان كثيرٌ منهم شعراء أوكان بعضهم على الأقل يقرض الشعر ، وكانوا كلهم على علم به ، يحلون معانيه ليستعملوا هذه المعانى الشعرية فى النثر فيضيفون إلى دِقَّةِ العِبَارَة جَمَالَ التَّعْبِير وحُسْنَ التصوير .(٦١)

تحديد عبد القاهر الجرجانى .. معيار الحسن فى الازدواج :

وَرَدَ هذا التحديد فى كتابه (أسرار البلاغة) فى سياق حديثه عن الجناس المستوفى قال :" فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنُصْرَةِ المعنى إذ لوكان باللفظ وحده لما كان فيه مستحق ، ولما وجد فيه إلا مَعِيبٌ مُسْتَهْجَن . ولذلك ذُمَّ الاستكثارُ منه والوُلُوعُ به . "(٦٢)

كانت هذه العبارة مدخلا لحديثه عن الإصابة فى الازدواج خاصة والبديع عامة واتخذ الجاحظ مثالا يدلل بأسلوبه على إصابة المقدار قال : "كان كلام المتقدمين الذين تركوا فَضْلَ العِناية بالسجع ولزموا سَجِيَّةَ الطبع أمكن فى العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأفضل عند ذَوِى التحصيل ، وأسلم من التفاوت ، وأكشف من الأغراض ، وأنصر للجهة التىتنحونحوالعقل ، وأبعد من التعمل(٦٣)الذى هوضرب من الخِدَاعِ والتزويق ، والرضى بأن تقع النقيصة فى

نفس الصورة وذات الخلقة إذا أُكْثِرَ فيها من الوشم والنقش ، وأُثْقِلَ صاحِبُها بالحلى والوشى ، قياس الحَلْى على السيفِ الدِّنْدانِ (٦٤) والتوسع فى الدعوى بغير بُرْهان ، كما قال المتنبى :

وَما الخَيْلُ إلا كالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ ... وإنْ كَثُرَتْ فى عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ

إذا لَمْ تُشَاهِدْ غيرَ حُسْنِ شِيَاتِها ... وأَعْضَائِها فالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ (٦٥)

وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن (٦٦) كلاما حمل صاحبه على فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم فى البديع إلى أنْ يَنْسَى أنه يتكلم ليُفْهِمَ ، ويَقُولُ ليُبِينَ، ويُخَيَّلُ إليه أنه إذا جَمَعَ بين أقْسَامِ البديع فى بيتٍ فلا ضَيْرَ أنْ يَقَعَ ما عناه فى عَمْيَاء ، وأن يُوقِعَ السامِعَ من طلبه فى خَبْطِ عَشْوَاء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كَمَنْ ثَقَّلَ العَرُوسَ بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها .

فإن أَرَدْتَ أن تَعْرِفَ مثالا فيما ذكرتُ لك من أن العارفين بجواهر الكلام لا يُعَرِّجُونَ على هذا الفن إلا بعد الثقة بسلامة المعنىوصحته وإلا حيث يأمنون جناية منه عليها وانتقاصًا له وتَعْوِيقًا دُونَه، فانظر إلىخُطَب الجاحظ فى أوائل كتبه ، هذا والخطب من شأنها أنْ يُعْتَمَدَ فيها الأوزان والأسجاع فإنها تُرْوَى وتُتَنَاقَل تَنَاقُلَ الأشْعَارِ ومَحَلُّها مَحَلُّ النسيب والتشبيب مِنَ الشعرِ الذى هوكأنه لايُرَادُ منه إلا الاحتفال فى الصنعة ، والدلالة على مقدار شوط القريحة ، والإخبار عن فَضْلِ القوة والاقتدار على التَّفَنُّنِ فى الصنعة . قال فى أول كتابه الحيوان : "جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبْهَةَ، وعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةِ ، وجَعَلَ بينَكَ وبين المَعْرِفَةِ سَبَبًا ، وبين الصِّدْقِ نَسَبًا، وحَبَّبَ إليك التَثَبُّتَ ، وزَيَّنَ فى عَيْنَيْكَ الإنْصَافَ ، وأذاقَكَ حَلاوَةَالتَّقْوَى ، وأشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ ، وأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَاليَقِين ، وطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ اليَأْسِ، وعَرَّفَكَ ما فِى البَاطِلِ من الذِّلَّةِ ، وما فى الجَهْلِ مِنَ القِلَّةِ ."

فقد ترك أولا أن يُوفِّقَ بين الشُّبْهَةِ والحَيْرَةِ فى الإعراب ، ولم يَرَ أنْ يَقْرِنَ الخِلَافَ إلى الإنْصَافِ ، ويَشْفَعَ الحَقَّ بالصِّدْقِ ، ولم يُعْنَ بأن يَطْلُبَ لليأسِ قَرِينَةً

تَصِلُ جَنَاحَه ، وشيئا يكون رَدِيفًا له ، لأنه رأى التوفيقَ بين المعانى أحق ، والموازنة فيها أَحْسَن ، ورأى العِناية بها حتى تكون أُخُوَّةً من أَبٍ وأُمٍّ ، ويذرها على ذلك تتفقُ بالوِدادِ ، على حسب اتفاقها بالمِيلاد أَوْلَى من أن يَدْعَهَا لنُصْرَةِ السجع ، وطلب الوزن . أولاد عَلَّةٍ (٦٧) عسى ألا يوجد بينهما وِفَاقٌ إلا فى الظاهر . فأما أن يتعدى ذلك الضمائر ، ويخلص إلى العقائد والسرائر ،ففى الأقل النادر." (٦٨)

مكانة أبى هلال العسكرى فى درس الازدواج

وأفضل من درس الازدواج أبوهلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فى كتابه الصناعتين . وفى القرن الرابع ازدهر السجع والازدواج . وكان خير منشئيهما ابن العميد وخير دارسيهما أبوهلال ، وسُمِّىَ ابنُ العميد الجاحظ الثانى لترسمه خطى شيخة وبنى أبوهلال كتابه الصناعتين على استكمال ما توهمه(٦٩) نقصا فى البيان والتبيين للجاحظ . فقال " .. فلما رأيت تخليط هولاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام . ووقفت على موقع هذا العلم (البلاغة) من الفضل ومكانه من الشرف والنبل . ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتبيين لأبى عثمان عمروبن بحر الجاحظ وهولعمرى كثير الفوائد ،جم المنافع ...إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير . فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه فى صنعة الكلام نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب وإهذار." (٧٠)

وقد أتينا لك بوصفه كتاب الجاحظ البيان والتبيين لتدرك أنه اتخذه مثله الأعلى وأتينا لك بمقدمة العسكرى لتقف بنفسك على أسلوبه أنه يأتى بالازدواج ولا يلتزم

بالسجع وهذا ما شهد به عبد القاهر الجرجانى للجاحظ كما رأيت من النص الذى أوردناه من أسرار البلاغة .

قال العسكرى : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلوحتى يكون مزدوجا ولا تكاد تجد لبليغٍ كلاما يَخْلُومِنَ الازدواج، ولواستغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن لأنه فى نظمه خارج من كلام الخلق . وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل فى أوساط الآيات فضلا عما تزاوج فى الفواصل منه قوله تعالى :(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور) الأنعام ١. وقوله عز وجل : (أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم) الأعراف ١٠٠. وقوله تعالى (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) البقرة ٢٦٧ . وقوله تعالى :

(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم) البقرة ٢١ .

وأما ما زاوج بينه بالفواصل فهوكثير : مثل قوله تعالى :(فاذا فرغت فانْصَبْ،وإلى رَبِّكَ فارْغَبْ) وقوله سبحانه : (فأما اليتيم فلا تقهر،وأما السائل فلا تنهر) وقوله عز وجل : (وأنه هوأضحك وأبكى،وأنه هوأمات وأحيا) وهذا من المطابقة التى لا تجد فى كلام الخلق مثلها حُسْنًا ولا شِدَّةَ اختصار على كثرة المطابقة فى الكلام .. وكذلك جميع ما فى القرآن مما يجرى على التسجيع(٧١).والازدواج مخالف فى تمكين المعنى وصفاء اللفظ وتضمن الطلاوة والماء لما يجرى مجراه من كلام الخلق .. ألا ترى قوله عز اسمه (والعاديات ضبحا،فالموريات قدحا،فالمغيرات صبحا،فأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا،فوسطن به جمعا.)(٧٢). قد بان عن جميع أقسامهم الجارية .

صنـــــوف الازدواج

وقد حصر العسكرى صنوف الازدواج فى المواطن الآتية (٧٣):

١ – أن يكون الجزءان متوازنين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه ، وهوكقول الأعرابى :(سَنَةٌ جَرَدَتْ، وحَالٌ جَهِدَتْ ، وأَبْدٌ جَمِدَتْ ، فَرَحِمَ اللهُ مَنْ رَحِمْ ، فَأَقْرَضَ مَنْ لايَظْلِم)

فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان والفواصل على حرف واحد .

ومثله قول آخر من الأعراب وقد قيل له : مَنْ بَقِيَ مِنْ إخْوانِكَ ؟ فقال : (كَلْبٌ نَابِحٌ ، وحِمَارٌ رَامِحٌ ، وأَخٌ فَاضِحٌ).

وقال أعرابى لرجل سأل لئيما : (نَزَلْتَ بِوَادٍ غَيْرِ مَمْطُورٍ ، وفِنَاءٍ غَيْرِ مَعْمُورٍ ، ورَجُلٍ غَيْرِ مَيْسُورٍ ، فَأَقِمْ بِنَدَمٍ ، أوارْتَحِلْ بِعَدَمٍ.)

ودعا أعرابى فقال : (اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَقَّكَ ، وأَرْضِ عَنِّي خَلْقَكَ .)

وقال آخر : (شِهَادَاتُ الأَحْوَالِ ، أَعْدَلُ مِنْ شِهَادَاتِ الرِّجَالِ)

ودعا أعرابى فقال : (أَعُوذُ بِكَ مِنَ الفَقْرِ إلا إلَيْكَ ، ومِنَ الذُّلِّ إلا لَكَ)

وقال أعرابى ذهب بابنه السيل : (اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ قَدْ أَبْلَيْتَ فإنَّكَ طَالَ مَاعَافَيْتَ) .

وقيل لأعرابى ما خَيْرُ العِنَب ؟ قال : (ما اخْضَرَّ عُودُهُ ، وطَالَ عَمُودُهُ ، وعَظُمَ عُنْقُودُهُ) .

فهذه الفصول متوازية لا زيادة فى بعض أجزائها على بعض بل فى القليل ، وقليل ذلك مغتفر لا يُعْتَدُّ به .

٢ – ومنها أن يكون ألفاظ الجزءين المزدَوَجَين مسجوعة فيكون الكلام سَجْعًا فى سجع . وهو مثل قول البصير :(حتَّى عادَ تَعْرِيضُكَ تَصْرِيحًا ، وتَمْرِيضُكَ تَصْحِيحًا) وهذا الجنس إذا سَلِمَ مِنَ الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع . ومِثْلُه قولُ الصَّاحِب :(لكنه عَمَدَ للشَّوْق فأجرى جياده غَرَرًا وقَرَحًا ، وأَوْرَى زِنَادَه قَدْحًا فَقَدْحًا .)(٧٤)

وقوله : (هَلْ مِنْ حَقِّ الفَضْلِ تَهْضِمُهُ شَغَفًا بِبَلْدَتِكْ ، وتَظْلِمُهُ كَلَفًا بِأَهْلِ جِلْدَتِكْ؟)(٧٥)

وقوله : (وقد كتب إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تَخْلِيَةِ نَفْسِه ، وَيُنْجِزُ وَعْدَ الثِّقَةِ فى فَكِّ حَبْسِه).

قال أبو هلال العسكرى :(فهذان الوجهان من أعلى مراتب الازدواج والسجع.)

٣- والذى دونهما ، أن تكون الأجزاء متعادلة وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد .

كقول بعض الكتاب :(إذا كنتَ لا تُؤتَى مِنْ نَقْصِ كَرَمْ ، وكنتُ لا أُوتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبْ ، فكيف أخافُ مِنْكَ خَيْبَةَ أَمَلْ ، أو عُدُولاً عن اغْتِفَارِ زَلَلْ ، أو فُتُورًا عن لَمِّ شَعَثْ ، أو قُصُورًا عن عِلَاجِ خَلَلْ.)(٧٦)

قال أبو هلال : فهذا الكلام جيد التوازن ، ولو كان بدل (ضعف سبب) كلمة آخرها ميم ليكون مضاهيا لقوله (نقص كرم) لكان أجود ، وكذلك القول فيما بعده.

والذى ينبغى أن يستعمل فى هذا الباب ولا بد منه الازدواج ، فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد أو ثلاثة أوأربع لا يتجاوز ذلك كان أحسن ، فإن جاوز ذلك نسب إلى التكلف ، وإن أمكن أيضا أن تكون الأجزاء متوازية كان أجمل، وإن لم يكن ذلك فينبغى أن يكون الجزء الأخير أطول.على أنه قد جاء فى كثير من ازدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر.

وقد جاء فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم منه شىء كثير ، كقوله للأنصار يفضلهم على من سواهم :(إِنَّكُم لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعْ.) وقوله صلى الله عليه وسلم (رَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَغَنِمْ ، أوسَكَتَ فَسَلِمْ.)

وكقول أعرابي :(فُلَانٌ صَحِيحُ النَّسَبْ ، مُسْتَحْكِمُ السَّبَبْ ، مِنْ أَيِّ أَقْطَارِهِ أَتَيْتَهُ أَتَيْتَهُ إِلَيْكَ مَقَالٌ ، وكَرَمٍ فِعَالٌ .) وقال آخر من الأعراب : (اللَّهُمَّ لِجْعَلْ خَيْرَ عَمَلِي ، مَا وَلِيَ أَجَلِي .)

قال أبو هلال : وينبغي أيضا أن تكون الفواصل على زِنَةٍ واحدة وإن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن ، كقول بعضهم :(اصْبِرْ على حَرِّ اللقاء ، ومَضَضِ النِّزَال ، وشِدَّةِ المَصَاعْ (٧٧) ومُدَاوَمَةِ المِرَاس .) فلو قال (على حر الحرب . ومضض المنازلة) لبطل رونق التوازن، وذهب حسن التعادل.

ومن عيوب الازدواج عند العسكري:

التجميع : وهو أن تكون فاصلة الجزأ الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزأ الثاني.

وشاهده ماذكره قدامه بن جعفر أن كاتبا كتب :

(وَصَلَ كِتَابُك فَوَصَلَ بِهِ ما يَسْتَعْبِدُ الحُرَّ ، وإنَّ كان قَدِيمَ العُبُودِيَّة ، ويَسْتَغْرِقُ الشُّكْر ، وإنْ كَانَ سَالِفُ وُدِّكَ لم يُبْقِ مِنْهُ شيئا).

والتطويل : وهو أن تجيء بالجزء الأول طويلا فتحتاج إلى إطالة الثانيضرورة.

وشاهده ما ذكره قدامة أن كاتبا كتب فى تعزية :(إذا كان للمحزُونِ فى لِقَاءِ مِثْلِهِ أكبرُ الراحة فى العَاجِل - فأطال هذا الجزء وعلم أن الجزء الثانى ينبغيأن يكون

طويلا مثل الأول وأطول ، فقال : – وكان الحزن راتبا(٧٨) إذا رجع إلى الحقائق وغير زائل – فأتى باستكراه وتكلف عجيب .

قال أبوهلال العسكرى مختتما دراسته عن السجع والازدواج :

" وقد أعجب العرب السجع حتى استعملوه فى منظوم كلامهم ، وصار ذلك الجنس من الكلام منظوما فى منظوم ، وسجعا فى سجع .. وسمى أهلُ الصنعة هذا النوع من الشعر المرصع ."

تدريب على درس الازدواج :

اشرح النصوص الآتية ، وبين موقعها من صنوف الازدواج ، واستكشف ما اشتملت عليه من فنون البديع ، ووضح قيمتها الفنية فى رأيك مدللا على ما تذهب إليه .

(١) قال أديب لصاحبه : " مَدَدْتَ إلى المَوَدَّةِ يَدًا نَشَكَرْنَاك ، وشَفَعْتَ بشيءٍ مِنَ الجَفَا فَعَذَرْنَاك ، والرُّجُوعُ إلى مَحْمُودِ الوُدّ ، أَوْلَى مِنَ المُقَامِ على مَكْرُوهِ الصَّدّ. "

(٢) قال أديب لأخ له : " ابْتَدَأْتَنِى بِلُطْفٍ مِنْ غَيْرِ خِبْرَهْ ، ثُمَّ أَغْضَبْتَنِى جَفًا مِنْ غَيْرِ هَفْوَهْ ، فَأَطْمَعَنِى أَوَّلُكَ فِى إِخَائِكْ ، وأيأسنى آخِرُكَ فى وَفَائِكْ ، فَسُبْحَانَ مَنْ لَوْيَشَاءُ كَشَفَ إِيضَاحَ الرَّأْىِ فى أَمْرِكْ ، عَنْ عَزِيمَةِ الشَّكِّ فى حَالِكْ ، فأقمنا على ائْتِلَافْ ، أوافْتَرَقْنَا على اخْتِلَافْ ."

(٣) قال ابنُ دُرَيْد :" وقف أعرابى علينا يسأل ، فقال : رَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا لم تَعْجُ أُذُنَاهُ كَلَامِى ، وقَدَّمَ مَعَاذَهُ مِنْ سُوءِ مَقَامِى ، فإنَّ البِلادَ مُجْدِبَهْ ، والحَالَ مُسْغِبَهْ ، والحَيَاءَ زَاجِرٌ يَمْنَعُ مِنْ كَلَامِكُمْ ، والفَقْرَ عَاذِرٌ يدعوإلى إِخْبَارِكُم ، والدُّعَاءَ إحدى الصَّدَقَتَيْنْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَءًا أَمَرَ بِمَيْرٍ ، أودَعَا بِخَيْرْ ."

(٤) استهل الجاحظ كتابه البيان والتبيين بقوله : " اللهم إنا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَوْل ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ العَمَلْ ، ونَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّكَلُّفِ لِمَا لاَ نُحْسِنْ ، كَمَا نَعُوذُ

بكَ مِنَ العُجْبِ بما نُحْسِن . وقديما تَعَوَّذُوا باللهِ مِنْ شَرِّهِمَا، وتَضَرَّعُوا إلى اللَّهِ فى السَّلَامَةِ مِنْهُمَا ."

(٥) واستهل كتابه الحيوان بقوله : " جَنَّبَكَ اللَّهُ الشُّبْهَةْ ، وعَصَمَكَ مِنَ الحَيْرَةْ ، وجَعَلَ بَيْنَكَ وبَيْنَ المَعْرِفَةِ نَسَبًا ، وبَيْنَ الصِّدْقِ سَبَبًا ، وحَبَّبَ إليكَ التَّثَبُّتْ ، وزَيَّنَ فى عَيْنِكَ الإنْصَافْ ، وأذاقَكَ حَلاوَةَ التَّقْوَى ، وأشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الحَقِّ ، وأوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ اليَقِينْ ، وطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ اليأس ، وعَرَّفَكَ مَا فِى البَاطِلِ مِنَ الذِّلَّةْ ، وما فى الجَهْلِ مِنَ القِلَّةْ."

(٦) واستهل أبوالقاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى تفسيره الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل بقوله : " الحمدُ للهِ الذى أنْزَلَ القُرْآنَ كَلامًا مُؤَلَّفًا مُنَظَّمًا ، ونَزَّلَهُ بِحَسْبِ المَصَالِحِ مُنَجَّمًا ، وجَعَلَهُ بالتَّحْمِيدِ مُفْتَتَحًا،وبالاسْتِعَاذَةِ مُخْتَتَمًا ، وأوْحَاهُ على قِسْمَين : مُتَشَابِهًا ومُحْكَمًا ، وفَصَّلَهُ سُوَرًا ، وسُوَرُهُ آياتْ ، ومَيَّزَ بَيْنَهُنَّ بفُصُولٍ وغَايَاتْ ، وما هى إلا صفات مبتدئ مبتدع ، وسمات منشىء مخترع . فسبحان مَنْ استأثر بالأوَّلِيَّةِ والقِدَمْ ، ووَسَمَ كلَّ شىء سواه بالحدوث عَنِ العَدَمْ . أنشأه كِتَابا ساطعا تِبْيَانُهُ ، قاطعا بُرْهَانُه ، وحيا ناطقا ببيناتٍ وحُجَجْ ، قرآنا عربيا غيرَ ذِى عِوَج ، مِفْتَاحا للمنافعِ الدينية والدنيوية، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية."

جدوى درس البديع فى وحدات (خاتمة) (٧٩)

أردنا أن نوقفك على جدوى منهج جديد ننادى به فى درس البديع يحقق العَصْرِيَّةَ ويستثمر دراساتِ القُدَمَاءِ فى معالجة قضايا أدبنا الحديث والمعاصر. ولا يَقْصُر دَرْسَ البديع على أدبنا القديم .

ويتلخص منهجنا فى تجميع وُجُوه البديع التى تعالج ظاهرة أسلوبية فى وَحْدَةٍ واحدة ، وتلك التى تعالج ظاهرة فنية مثل الغموض فى العمل الفنى بتجميع وجوه البديع التى تعرض الأشكال المختلفة للغموض فى وَحْدَة واحدة ، وكذلك تجميع

وجوه البديع المتصلة بالبناء الفنى للقصيدة والخطبة والرسالة فى وحدة واحدة، وهكذا فى سائر الظواهر الأدبية والقضايا الفنية التى تعالج قضية الوحدة العضوية فى القصيدة والخطبة والرسالة والتى تعالج العلاقة بين اللفظ والمعنى .

وقد أدركت من هذا المنهج الذى اتبعناه فى درس البديع تضافر جهود البلاغيين على رُقِيِّ هذا الدرس ، فقد أدركت أن أبا هلال العسكرى امتدادٌ للجاحظ، وهذه حقيقة أقرها العسكرى فى مقدمة الصناعتين حين قال إن كتاب البيان والتبيين أكبر كتب البلاغة وأشهرها . وبينا أن الظروف الصحية للجاحظ قد جعلته يستعين بوراق كان مسؤولا إلى حد كبير عن اضطراب كثير من أجزاء الكتاب حين لم ينفذ تعليمات المؤلف على الوجه الذى أراده .

والنصوص التى أوردناها من كتاب البيان والتبيين فى باب الأسجاع تدل على أن العسكرى كان مستفيدا من كتاب الجاحظ ، مفيدا فى إكمال ما لم يقدر عليه مؤلفه . وقد رأيت أن باب الازدواج هودراسة ثانية لبابى الأسجاع فى الجزء الأول من البيان والتبيين (٨٠) . والحقيقة التى نشهد بها إن إضافة العسكرى لا تقل خَطَرا عما أنشأه الجاحظ فقد بنى العسكرى دراسته القيمة عن الازدواج على دراسة شواهد الجاحظ وأضاف إليها ما يماثلها قيمة ودَرَس الازدواجَ فى إنشاءِ الجاحظ وإنشاءِ أدباء الكُتَّابِ فى القرن الرابع .

وهذا يثبت قيمة ما نادى به الجاحظ إن فى الحق ما وَسِعَ الجميع ، وما حدثناك عنه من وَحدة التراث التى جعلت البلاغة العربية قصرا شامخ البنيان وَطِيدَ الأركان متعدد الحجرات متباعدَ الأرجاء ، أسهم كل جيل من الأجيال فى استكمال العمل الذى أنجزه سلفه . وأن هذا القَصْرَ عَرَبِيُّ الأساسِ إسْلَامِيُّ الطَّابَعِ لأن أصحابه هم ساكنوه.

والذى ينبغى أن نستكشفه هوهذا الميراث الذى صِرْنَا مالكيه ، ودَوْرُنَا:كيف نجيد الاستفادة مما نَمْلِك استفادةً عصرية ، وكيف نَصُونه لنُوَرِّثَهُ للجيل الذى يرثنا .

ونرد بهذه العبارات إجمالا على مَنْ يَسْعَوْنَ لتَبْدِيدِ هذا الميراث بادِّعاء أنَّ البلاغة مظهر من مظاهر التخلف، وأن دراسة الأدب الآن هى النقد ويختفون وراء سِتَارِ الحَدَاثَةِ ويُشَوِّهُون دَرْسَنَا بتحبير الصفحات الكثيرة العدد عن الخلافات بين الفِرَق الاسلامية حول جزئية تجاوزها بُنَاةُ قصرنا الشامخ البنيان فى الدرس البلاغى .

أدركتَ مِنْ شَوَاهِدِ هذا الدرس وأعلامِ دَرْسِه وأعْمَالِهِم ومراحِلِ نُمُوِّه عن الأسجاع أهى مكروهة أم لا ، ولماذا ؟ والمقايسة بين السجع والفواصل وكيف تطور السجع إلى لزوم ما لايلزم وعلام يدل ذلك؟ وما المعيار فى استحسان أواستهجان هذا اللون البديعى . وحصر صور السجع المتعددة فى الشعر والنثر ، وانفصال ظاهرة الترصيع بدرس مستقل ، وانفصال درس السجع الموازى بباب مستقل هوالازدواج . والتخفف من شروط السجع تبعا لتقرير الفرق بين السجع والفواصل . واتخاذ الأدباء الأسلوب القرآنى وبيان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى يحتذونه - أدركتَ من كل ما تقدم أن هذه الوجوه البديعية خالصة فى انتماء قِيَمِها الخُلُقِيَّةِ والجمالية للعروبة والإسلام _ وأنه لا دخل لِمُؤَثِّرٍ وافِدٍ فى نشأة هذا الدرس ونموه ، وقد جاء التأثر بما عند اليونان على سبيل الموازنة بين ما عندنا وما عندهم .

درس الازدواج بين العرب واليونان

ومن هذا المنطلق لا نرى بأسا من تلمس المشابه بين درس الازدواج عند العرب ودرسه عند أرسطوعلى سبيل المقارنة لا التأثير ونعتمد فى هذه المقارنة على الدراسة القيمة للدكتور إبراهيم سلامة بعنوان (بلاغة أرسطوبين العرب واليونان .)

تلمس الدكتور إبراهيم سلامة المَشَابِهَ بين درس الازدواج عند العرب وعند أرسطو، قال :" العبارة المضطردة (غير المقطعة) هى عبارة القدماء وعبارة

المؤرخين ويمثلها أسلوب هيرودوت . أما العبارة المُقَطَّعة إلى عِدَّة فَواصِلَ أخيرة فهى عبارة المحدثين (يعنى السوفسطائيين) .

قال أرسطوفى كتابه الخطابة (٨١) :" إننى أعنى بالعبارة المضطردة العبارة التى لا تنتهى إلا عند غايتها وهى عبارة ينقصها الجمال ، لأنها غير محدودة ، والناس يتطلعون إلى الغاية . والذى يقطع الشوط مرة واحدة ليصل إلى الغاية يدركها لاهثا مكدودا ، ولكنه إذا تطلع إلى الغاية قبل أن يصل إليها لا يحس بالتعب ، وأعنى بالعبارة المُقَسَّمَة فى زمن (٨٢) التى تجمع بين المبدأ والغاية (٨٣) فهى كالمدى الفسيح يدركه الطرف بنظرة واحدة . وهذه العبارة المقسمة تتصف بالحُسْنِ والسهولة ، فحُسْنُها من أنها محدودة ومن أن السامع تَعَوَّدَ مِنَّا أن نقدم له دائما المعنى المحدود فهويعتقد بمجرد السماع أنه حصل على معنى ، فمن غير المستحسن إذن أن يسمع ولا يدرك ، أوأن يسمع ولا يصل إلى شيء .

وأما سهولتها فآتية من أنها مقسمة ، وهذا التقسيم هوأَجْدَى ما يكون على الذاكرة ، ومن هنا سُهُولة حفظ الشعر أكثر من النثر ، لأن الشعر خاضع للتقسيم العددى الذى تتخذ منه المقاييس الشعرية . ويجب أن ينتهى التقسيم الزمنى (الشطرأوالجملة المسجوعة) بمعناه ، وألا ينقطع المعنى فى البيت أوفى الجملة الثانية ....لأن نقص الوَحْدة يوقع فى أن يفهم عن الشاعر شيء آخر غير ما أراده.

ثم يقول : هذه الفاصلة الزمنية تتركب أحيانا من عدة أجزاء ، وتكون أحيانا وحدة قائمة بذاتها والمركب من عدة أجزاء .. تام ومُقَسَّمٌ فى آن واحد .. مع وقفات مريحة للتنفس ، وليس معناه فى كل جزء من أجزائه ، وإنما المعنى فى مجموع الأجزاء ، وأعنى بالوحدة الجملة التى ليس لها إلا جزء واحد .

يستمر أرسطو ليبين لنا بلاغة هذه الفواصل فيقول : الأجزاء والفواصل الزمنية تكون متوسطة لا قصيرة ولا طويلة ، فالمبالغة فى القِصَرِ كثيرًا ما تصدم السامع،والمُبَالَغَةُ فى الطول تصرف عنك السامع فيتركك فيكون مَثَل السامع كَمَثَلِ

جماعة يتنزهون مع آخرين ثم تركوهم عند الحدود وجاوزوهم فلابد ان يرجعوا ليدركوا أصدقائهم .

ويستخلص الدكتور ابراهيم سلامة عدة نتائج ،أهمها : أن هذه الأصول التى ترجع إليها نصوص أرسطوتجمع كثيرا من صنوف البلاغة العربية ، فالسجع بأقسامه التى ذكرها أبوهلال نجد أساسه فى عبارات أرسطو، وما يسميه أبوهلال وغيره مطابقة ومقابلة ومراعاة نظير نجد أصله أيضا فى الكلام .....

والأمثلة التى ساقها قدامة شعرا لا تبعد عن هذه التى ساقها أرسطونثرا .(٨٤)

إن هذه النتيجة التى انتهى إليها الدكتور ابراهيم سلامة بالغة الخطر ، وهى تمثل اتجاها بدأه أحمد لطفى السيد وتبناه الدكتور طه حسين مؤداه التبعية الحديثة للغرب وتبعية تراثنا للتراث اليونانى منذ نَظَّمَ العباسيون الترجمة عن اليونانية وبخاصة مؤلفات أرسطووكانت قد ترجمت إلى السريانية ...(٨٥)

لقد أوقفناك على مراحل نموهذا الدرس وعلى أعلامه وأعمالهم ، ودللناك على المعيار الذى نَظَّرَهُ الجاحظ للقيم الخلقية والجمالية والذى لمسته فى نص عبد القاهر الجرجانى فى أسرار البلاغة ، وثبت لك من تتبعك لما أثاره أصحاب الاعجاز مصورا بقلم الباقلانى عن المقايسة بين الأسجاع والفواصل أن مفهوم الفواصل التُزِمَ فتعدى هذا الدرس مجانسة الفاصلتين فى الحروف وهومفهوم السجع إلى المقاربة فى مخارج الحروف والمشاكلة فى أوزان الفواصل، وهذا يثبت كلامنا عن وحدة التراث .

لا نريد أن ندلك على خطأ النتيجة التى انتهى إليها الدكتور ابراهيم سلامة وإنما أردنا أن ننبهك إلى ظاهرة أيديولوجية فى الدرس البلاغى نتجت عن التغريب الذى قاده أحمد لطفى السيد وغذاه الدكتور طه حسين وكثير من المستشرقين وأساتذة الجامعات فى الغرب الذين تخرج عليهم المبعوثون المصريون والعرب . وقد دللناك على حديث الدكتور محمد حسين هيكل عنها أوائل هذا القرن وتقرير

الدكتور سيد نوفل لها أواسط هذا القرن (٨٦) فى كتابنا (المدخل إلى الأدب العربى ودراسته)

ومنهجنا الذى نادينا به فى درس البديع والذى طبقناه فى هذه الدراسة كفيل بإثبات أن البلاغة العربية قصر شامخ البنيان عربى الأساس إسلامى الطابع ولا يعيب هذا القصر أن يشتمل على بعض المتاع الأجنبى .